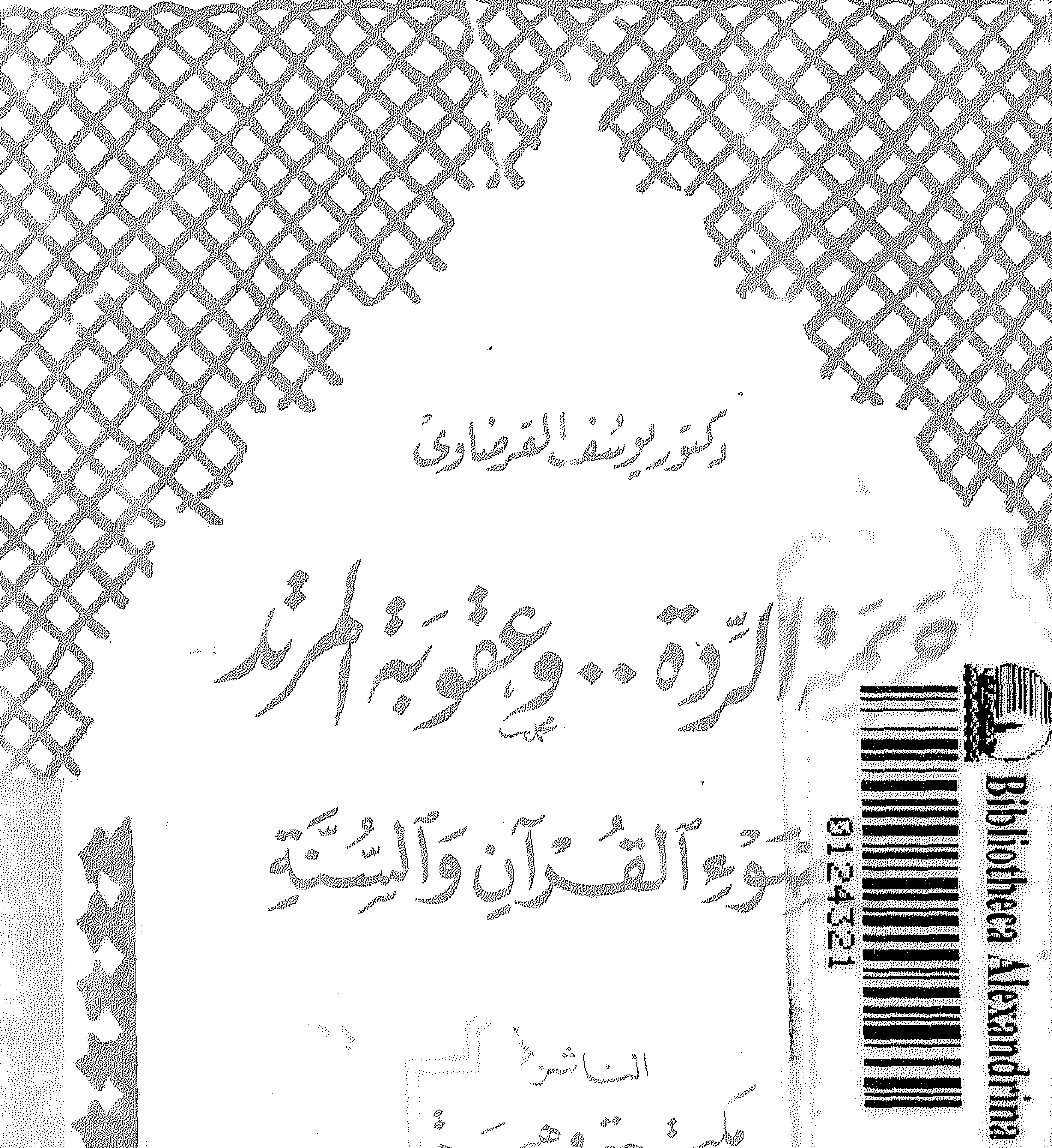
سلسلة رسائل ترشيد الصحوة (٦)



دكتور يوسف القرضاوي

الردة .. وعقوبة المرتد

ضوء القرآن والسنة

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

جريمة الردة .. وعقوبة المرتد

في ضوء القرآن والسنة

سلسلة رسائل في ترشيد الصحوة
(٦)

جريمة الردة.. وعقوبة المرتد

في ضوء القرآن والسنة

دكتور يوسف القرضاوي

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وكفى ، وسلام على رسله الذين اصطفى ، وعلى خاتمهم المجتبى ، محمد وآله وصحبه ومن بهم اقتدى فاهتدى . .

أما بعد :

فقد كثر الكلام عن الردة وعن المرتد ، وعقوبته فى شريعة الإسلام ، ودخل فى المعركة من يحسن ومن لا يحسن ، وقال من قال : إن القرآن لم يتعرض لهذه الجريمة قط فى أى آية من آياته !

وقال آخرون : إنه لم يرد فى عقوبة المرتد إلا حديث واحد هو : « من بدل دينه فاقتلوه » وحاولوا أن يهونوا من شأن الحديث .

وحاول آخرون أن يهونوا من شأن هذه الجريمة وخطورتها على المجتمع ، ولم يفرقوا بين المسر والمجاهر ، ولا بين الداعية وغير الداعية ، ولا بين الردة المخففة والردة المغلظة .

وفى هذه الرسالة نجتهد أن نبين الحق فى هذه الأمور التى التبس فيها الحق بالباطل ، واختلط الحابل بالنابل ، معتمدين على نصوص القرآن وصحيح السُّنَّة ، وفهم الصحابة ، وأقوال جهابذة الأمة .

وقد استبان لنا أن القرآن لم يهمل جريمة الردة ولا عقوبتها بالكلية كما زعم زاعمون .

وأن السُّنَّة لم يرد فيها حديث واحد عن عقوبة المرتد ، بل عدد من الأحاديث عن عدد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كما وضحنا خطورة الردة على المجتمع ، وأنها يمكن أن تقسمه وتمزقه ، وتوقعه فى فتنة عمياء ، بل فى حرب أهلية ، يقتل فيها العباد ، وتدمر فيها البلاد ، وتأكل الأخضر واليابس .

كما رجحنا أن المرتد العادى الذى لا يسعى لردة المجتمع وفتنته عن دينه ، يكتفى بحبسه ومحاولة إقناعه ، وإزالة اللبس والغبش عن فكره ، كما ثبت ذلك عن عمر ، وكما هو رأى إمامين كبيرين : إبراهيم النخعى وسفيان الثورى .

أسأل الله أن ينفع بهذه الرسالة ، وأن يضئ بها الطريق للتائهين عن الدرب ، وأن يهدينا جميعاً سواء السبيل .

يوسف القرضاوى

* * *

مجتمع إيمان وعقيدة

من البدهيات التى لا ريب فيها ، ولا خلاف عليها : أن المجتمع المسلم هو (مجتمع مؤمن) .

وأن أول أساس يقوم عليه المجتمع ويقوم به هو العقيدة : عقيدة الإسلام . فمهمة المجتمع الأولى هى غرس هذه العقيدة ورعايتها وتثبيتها وحمايتها ، ومد نورها فى الآفاق .

وعقيدة الإسلام تتمثل فى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائكَتِه وَكُتُبِهِ وَرُسُلِه لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِه ، وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) .

فهى عقيدة تبنى ولا تهدم ، تجمع ولا تفرّق ، لأنها تقوم على تراث الرسالات الإلَهية كلها ، وعلى الإيمان برسل الله جميعاً : ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ .

---

(١) البقرة : ٢٨٥

● عنوان العقيدة الإسلامية – الشهادتان :

ولهذه العقيدة عنوان يلخصها أو شعار يعبِّر عنها هو : « شهادة أنْ لا إلَه إلا الله وأنّ محمداً رسول الله » ، هذه العقيدة هى التى تمثل وجهة نظر المسلمين إلى الكون ورب الكون ، وإلى الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وإلى الحياة وما بعد الحياة ، وإلى العالَم المنظور والعالَم غير المنظور ، وبعبارة أخرى : إلى الخلق والخالق ، إلى الدنيا والآخرة ، إلى عالَم الشهادة وعالَم الغيب .

فهذا الكون بأرضه وسمائه ، بجماده ونباته ، وحيوانه وإنسانه ، وجنه وملائكته . . . . هذا الكون لم يُخلق من غير شىء ، ولم يَخلق نفسه ، فلا بد له من خالق عليم قدير عزيز حكيم ، خلقه فسوّاه ، وقد قدّر كل شىء فيه تقديراً ، فكل ذَرّة بميزان ، وكل حركة فيه بمقدار وحسبان . وذلك الخالق هو الله ، الذى تدل كل كلمة بل كل حرف فى كتاب الوجود على مشيئته وقدرته ، وعلمه وحكمته : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ، وَإِن مِّن شَىْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ (١) .

---

(١) الإسراء : ٤٤

هذا الخالق الأعلى هو رب السموات والأرض ، رب العالَمين ، رب كل شيء ، واحد أحد لا شريك له فى ذاته ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، فهو وحده القديم الأزلى وهو وحده الباقى الأبدى ، وهو وحده الخالق البارئ المصوِّر ، له الأسماء الحسنى ، والصفات العلا ، لا ندّ له ولا ضدّ له ، ولا ولد له ، ولا والد ، ولا شبيه ولا نظير .. ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (١) .

﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٣) .

كل ما فى هذا الكون العظيم ، علويه وسفليه ، صامته وناطقه ، يدل على أن عقلاً واحداً ، هو الذى يدبر أمره ، ويداً واحدة هى التى تدير رحاه ، وتوجه دفته وإلا لاختل نظامه ، وأفلت زمامه ، واضطرب ميزانه ، وتهدم بنيانه ،

---

(١) سورة الإخلاص كاملة .   (٢) الحديد : ٣

(٣) الشورى : ١١

تبعاً لما تقضى به الضرورة من اختلاف العقول المتباينة التى توجه ، واختلاف الأيدى المتعددة التى تحرك . . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١) ، وقال جلَّ شأنه : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (٢) ، ويقول : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ (٣) .

فالحقيقة التى لا مراء فيها : أنّ كل من فى السموات ومَن فى الأرض عبيد لله ، وكل ما فى السموات والأرض ملك لله ، فليس أحد ولا شىء من العقلاء أو من غير العقلاء شريكاً لله ، أو ولداً له ، كما يقول القائلون من الوثنيين وأشباه الوثنيين ، ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً ،

---

(١) الأنبياء : ٢٢ (٢) المؤمنون : ٩١

(٣) الإسراء :٤٢ - ٤٣

سُبْحَانَهُ ، بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (١) .

ومَن ضَلّ عن هذه الحقيقة فى الدنيا فسيُكشف عنه الغطاء فى الآخرة ، ويرى الحقيقة عارية واضحة وضوح الشمس فى الضحى : ﴿ إن كُلُّ مَن فى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِى الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَداً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً ﴾ (٢) .

فلا عجب بعد ذلك أن يكون هذا الخالق العظيم ، وهذا الرب الأعلى هو وحده الذى يستحق العبادة والطاعة المطلقة ، وبعبارة أخرى : « يستحق غاية الخضوع وغاية الحب ، فالمعنى المركب من الخضوع كل الخضوع ، الممزوج بالحب كل الحب ، هو الذى نسميه العبادة » (٣) .

وهذا هو معنى « لا إلَه إلا الله » أى لا يستحق العبادة غيره .. أو لا يستحق كل الخضوع وكل الحب إلا هو ..

---

(١) البقرة : ١١٦ - ١١٧ (٢) مريم : ٩٣ - ٩٥

(٣) راجع بتفصيل معنى العبادة فى كتابنا « العبادة فى الإسلام » .

فهو وحده الذى تخضع لأمره الرقاب ، وتسجد لعظمته الجباه ، وتسبِّح بحمده الألسنة ، وتنقاد لحكمه القلوب والعقول والأبدان .

وهو وحده الذى تتجه إليه الأفئدة بالحب كل الحب ، فهو المتفرد بالكمال كله ، والكمال من شأنه أن يُحَب ويُحَب صاحبه ، وهو مصدر الجمال كله ، وما فى الوجود من جمال فهو مستمَد منه ، والجمال من شأنه أن يُحَب ويُحَب صاحبه ، وهو واهب النعَم كلها ، ومصدر الإحسان كله : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ (١) ، والإحسان دائماً يُحَب ، والنعمة دائماً تُحَب ويُحَب صاحبها .

معنى « لا إلَه إلا الله » هو رفض الخضوع والعبودية لكل سلطان غير سلطانه ، وكل حكم غير حكمه ، وكل أمر غير أمره ، ورفض الولاء إلا له ، والحب إلا له وفيه .

* * *

---

(١) النحل : ٥٣

● عناصر التوحيد الأساسية :

وإذا أردنا أن نزيد هذا المعنى إيضاحاً قلنا : إن عناصر التوحيد كما جاء بها القرآن الكريم ، ثلاثة ذكرتها سورة الأنعام ، وهى سورة عنيت بتثبيت أصول التوحيد :

أولها : ألا تبغى غير الله رباً : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؟! (١) .

وثانيها : ألا تتخذ غير الله ولياً : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ اتَّخِذُ وَلِياً فاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ (٢) .

وثالثها : ألا تبتغى غير الله حكَماً : ﴿ أفَغَيْرَ اللهِ أبْتَغِى حَكَماً وَهُوَ الَّذِى أنزَلَ إلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ (٣) .

* العنصر الأول - ألا تبغى غير الله رباً :

معنى العنصر الأول « ألا تبغى غير الله رباً » : إبطال الأرباب المزعومة التى اتخذها الناس قديماً وحديثاً ، فى الشرق والغرب ، سواء أكانت من الحجر والشجر أم من

---

(١) الأنعام : ١٦٤ (٢) الأنعام : ١٤
(٣) الأنعام : ١١٤

الفضة والتبر ، أم من الشمس والقمر ، أم من الجن والبَشر ، معنى العنصر الأول هو رفض لكل الأرباب إلا الله ، وإعلان الثورة على المتألهين فى الأرض المستكبرين بغير الحق ، الذين أرادوا أن يتخذوا عباد الله عبيداً لهم وخولاً .

« لا إلَهَ إلا الله » هو الإعلان العام لتحرير الإنسان من الخضوع والعبودية ، إلا لخالقه وبارئه ، فلا يجوز أن تعنو الوجوه ، أو تطاطئ الرءوس ، أو تنخفض الجباه ، أو تخشع القلوب ، إلا لقيوم الأرض والسموات .

ولهذا كان النبى ﷺ يختم رسائله إلى الملوك والأمراء والقياصرة من النصارى بهذه الآية الكريمة : ﴿ . . . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (1) .

وكانت كلمة « ربنا الله » إعلاناً بالعصيان والتمرد على كل جبار فى الأرض .

---

(1) آل عمران : ٦٤

ومن أجل هذا تعرَّض موسى للتهديد بالقتل ، وقام رجل مؤمن من آل فرعون يدافع عنه ويقول : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ﴾ ؟! (١) .

ومن أجل ذلك تعرَّض رسولنا ﷺ وأصحابه للاضطهاد والأذى والإخراج من الديار والأموال .. ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إلاَّ أن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللهُ ﴾ (٢) .

* العنصر الثانى - ألا تتخذ غير الله ولياً :

ومعنى العنصر الثانى « ألا تتخذ غير الله ولياً » : رفض الولاء لغير الله وحزبه ، فليس من التوحيد أن يزعم زاعم أن ربه هو الله ، ثم يتجه بولائه وحبه ونُصرته لغير الله ، وربما لأعداء الله . قال تعالى : ﴿ لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِى شَىْءٍ ﴾ (٣) .

إن حقيقة التوحيد لمن آمن بأن ربه هو الله : أن يخلص

---

(١) غافر : ٢٨ (٢) الحج : ٤٠

(٣) آل عمران : ٢٨

ولاءه لله ولمن أمر الله تعالى بموالاته ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١) .

ومن هنا أنكر القرآن على المشركين أنهم قسموا قلوبهم بينه تعالى وبين الأنداد التى اتخذوها من الأصنام والأوثان ، فجعلوا لها من الحب والولاء مثل ما جعلوا لله .. ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ ﴾ (٢) . إن الله تعالى لا يقبل الشركة فى قلوب عباده المؤمنين ، فلا يجوز أن يكون بعض القلب لله وبعضه للطاغوت ، وأن يكون بعض ولائه للخالق ، وبعضه للمخلوق . إن الولاء كله والقلب كله يجب أن يكون لله ، صاحب الخلق كله ، والأمر كله ، وهذا هو الفرق بين المؤمن والمشرك ، المؤمن سَلَّم لله ، خالص العبودية لله ، والمشرك موزع بين الله وبين غير الله : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً

---

(١) المائدة : ٥٥ – ٥٦ (٢) البقرة : ١٦٥

سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ، الْحَمْدُ للهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

* العنصر الثالث – ألا تبتغى غير الله حكماً :

ومعنى العنصر الثالث « ألا تبتغى غير الله حكماً » : رفض الخضوع لكل حكم غير حكم الله ، وكل أمر غير أمر الله ، وكل نظام غير نظام الله ، وكل قانون غير شرع الله ، وكل وضع أو عُرف أو تقليد أو منهج أو فكرة أو قيمة لم يأذن بها الله . ومَن قبلَ شيئاً من ذلك حاكماً كان أو محكوماً ، بلا إذن من الله وسلطان ، فقد أبطل عنصراً أساسياً من عناصر التوحيد ، لأنه ابتغى غير الله حكماً ، والحكم والتشريع الأعلى من حق الله وحده ، لهذا قال سبحانه : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وهذا العنصر إنما هو فى الواقع مقتضى إفراد الله تعالى بالربوبية والإلَهية ، فإنَّ مَن اتخذ أحداً من عباد الله شارعاً

---

(١) الزمر : ٢٩ (٢) يوسف : ٤٠

وحاكماً ، يأمر بما شاء ، وينهى عما يشاء ، ويحلّل ما يريد ويحرِّم ما يريد ، وأعطاه حق الطاعة فى ذلك ولو أحلَّ الحرام ، كالزنا ، والربا ، والخمر ، والميسر ، وحرَّم الحلال : كالطلاق ، وتعدد الزوجات ، وأسقط الواجبات : كالخلافة ، والجهاد ، والزكاة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإقامة حدود الله وغيرها ، مَن اتخذ مثل هذا حكماً وشارعاً ، فقد جعله فى الحقيقة رباً يُطاع فى كل أمر ، ويُنقاد له فى كل ما شرع . وهذا ما جاء به القرآن وفسّرته السُّنَّة النبوية .. فقد جاء فى سورة التوبة عن أهل الكتاب قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً ، لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

فكيف اتخذوهم أرباباً وهم لم يسجدوا لهم ولم يعبدوهم عبادة الأوثان ؟

يجيب عن ذلك رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد

(١) التوبة : ٣١

والترمذى وابن جرير من قصة إسلام عدى بن حاتم الطائى ، وكان قد تنصّر فى الجاهلية وقدم إلى المدينة ، وتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفى عنقه صليب من فضة ، وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ . . . ﴾ قال عدى : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ! فقال صلى الله عليه وسلم : « بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال وأحلُّوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » [1] .

قال ابن كثير : وهكذا قال حذيفة بن اليمان ، وابن عباس وغيرهما فى تفسير : ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ ﴾ : أنهم اتبعوهم فيما حلّلوا وحرّموا ، وقال السدى : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً ﴾ أى الذى إذا حرّم الشىء فهو الحرام ، وما حلّله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون .

---

(١) رواه الترمذى وابن جرير من طريق غطيف بن أعين ، ولم يوثقه غير ابن حبان ، ولذا قال الترمذى : غريب . ولكن صح موقوفاً على حذيفة وغيره .

هذا هو مجمل معنى الكلمة الأولى من كلمتى الشهادة كلمة : « لا إلَهَ إلا الله » ومقتضاه : ألا تبغى غير الله رباً ، ولا تتخذ غير الله ولياً ، ولا تبتغى غير الله حكَماً ، كما نطق القرآن العظيم فى صريح آياته المحكمات .

* * *

● معنى (محمد رسولُ الله) :

وأما معنى الكلمة الثانية من كلمتى الشهادة التى يدخل بها المرء باب الإسلام فهى : « محمد رسول الله » إن الإقرار لله تعالى بالوحدانية ، وإفراده سبحانه بالإلهية ، والربوبية ، لا يغنى ما لم ينضم إليها هذا الشطر الثانى : « محمد رسول الله » .

فإن الله جَلَّ شأنه قد اقتضت حكمته ألا يدع الناس هملاً ، ولا يتركهم سدىً ، فأرسل إليهم ما بين حين وآخر مبلِّغين عنه ، يهدون خلقه إليه ، ويدلونهم عليه ويرشدونهم إلى مراضيه ، ويحذرونهم من مساخطه : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (١) .

---

(١) النساء : ١٦٥

كما أنّ من مهمة هؤلاء الرسل وضع القواعد والقيم والموازين التى تضبط الحياة وتنظم المجتمع ، وتهديه للتى هى أقوم ، ويحتكم الناس إليها إذا اختلفوا ، ويفيئون إليها إذا تنازعوا ، فيجدون فيها الحق الذى لا باطل معه ، والعدل الذى لا ظلم فيها ، والخير الذى يطرد الشر ، والفضيلة التى تقاوم الرذيلة ، والفساد والانحراف . . . قال الله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (١) ، فهذا ما أنزل الله على رسوله : « الكتاب » وهو نصوص الوحى الإلهى المعصوم ، و« الميزان » وهو القيم والمعايير الربانية التى جاءت بها النبوات من المُثُل العليا والفضائل الإنسانية التى تسير فى ضوء « الكتاب » ، ولولا هؤلاء الرسل لضل الناس السبيل فى تصورهم لحقيقة الألوهية ، وطريقهم إلى مرضاتها وواجبهم نحوها . . وابتدعوا طرائق قدداً ، وسُبُلاً شتى ، ما أنزل الله بها من سلطان . سبلاً تفرّق ولا تجمع ، وتهدم ولا تبنى ، وتضل ولا تهدى .

---

(١) الحديد : ٢٥

وخاتم هؤلاء الرسل هو محمد ﷺ ، فهو المبلِّغ عن أمره وحكمه وشرعه ، وبه عرفنا ما يريده الله منا ، وما يرضاه لنا ، وما يأمرنا به ، وما ينهانا عنه .. وبه عرفنا ربنا .. وعرفنا منشأنا ومصيرنا .. وعرفنا طريقنا بين المنشأ والمصير .. عرفنا ما أحله ربنا وما حرّمه .. وما فرضه وأوجبه .. ولولاه - صلى الله عليه وسلم - لعشنا فى ظلمات وعماية ، لا نعرف لنا غاية ، ولا نهتدى سبيلاً : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

به عرفنا أنّ وراء هذه الحياة حياة أخرى تُوفَّى فيها كل نفس ما كسبت ، وتُجزى بما عملت ، فيجزى الذين أساءوا بما عملوا ، والذين أحسنوا بالحسنى .

به عرفنا أنَّ وراءنا حساباً وميزاناً ، وثواباً وعقاباً ، وجنة وناراً : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ ﴾ (٢) .

---

(١) المائدة : ١٥ - ١٦ (٢) الزلزلة : ٧ - ٨

به عرفنا مبادئ الحق ، وقواعد العدل ، ومعانى الخير ، فى شريعة لا تضل ولا تنسى ، شرعها مَن يعلم السر وأخفى ، مَن لا تخفى عليه خافية ، مَن يعلم المفسد من المصلح .. ﴿ ألاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) .

ومن ثَمَّ كانت كلمة : « محمد رسول الله » تتمة لكلمة : « لا إلَهَ إلا الله » ، فهذه معناها ألا يُعبد إلا الله . والأخرى معناها : ألا يُعبد الله إلا بما شرعه وأوحاه على لسان رسوله .

* * *

● طاعة رسول الله من طاعة الله :

ولا عجب أن كانت طاعة رسول الله جزءاً من طاعة الله : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ (٢) ، وكان أتباعه من أمارات محبة الله : ﴿ قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

---

(١) الملك : ١٤ (٢) النساء : ٨٠

(٣) آل عمران : ٣١

وكان الرضا بحكمه وشرعه جزءاً لا يتجزأ من الإيمان بالله تعالى ، ولا يُعد فى زمرة المؤمنين مَن رفض أمراً وحكماً حكم به رسول الله ﷺ ، مما أنزله الله عليه من كتابه أو مما أوحاه إليه بياناً لهذا الكتاب ، فقد أرسله مبيِّناً للناس ما نُزِّل إليهم .. وهذا أمر بيِّن غاية البيان فى القرآن الكريم ، فليس بمؤمن أبداً مَن احتكم إلى غير رسول الله ، أو رد حكمه ، أو تردد فيه مجرد تردد .

يقول القرآن العزيز : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾ (١) .

* * *

● المنافقون هم الذين يترددون فى قبول حكم الله ورسوله :

ويقول سبحانه منددا بقوم من مرضى القلوب من المنافقين : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ

---

(١) الأحزاب : ٣٦

يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

ويقول فى شأن مَن تردد فى قبول حكم رسول الله ﷺ ، ورضى الاحتكام إلى آخرين من البَشر ، قيل : إنهم بعض اليهود : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا .. ﴾ (٢) ... إلى أن قال مقسماً ومؤكداً :

---

(١) النور : ٤٧ - ٥١ (٢) النساء : ٦٠ ، ٦١

﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ (١) .

هذا هو شأن المؤمنين مع رسول الله ﷺ ، وحكم رسول الله ﷺ ، وشرع رسول الله : إنهم لا يترددون لحظة فى قبول الحكم أو رفضه ، وبعبارة أخرى - ليس لهم الخيرة من أمرهم ، ولا يتولون عن الانقياد والطاعة ، كما يفعل المنافقون بل شعارهم ومبدؤهم دائماً : « سمعنا وأطعنا » .

وهذا بخلاف المنافقين الذين يرضون الاحتكام إلى غير الله ورسوله - وكل ما سوى الله ورسوله ، فهو طاغوت - ولهذا قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ .. فهما حكمان لا ثالث لهما : إما الله ، وإما الطاغوت .

لقد رسمت الآيات صورة المنافقين وموقفهم من شرع الله وحكم رسوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴾ (٢) .

---

(١) النساء : ٦٥ (٢) النساء : ٦١

ونفت - بشدة - الإيمان عمن لم يُحَكِّم رسول الله فى حياته ، ويحكم بسُنَّته بعد مماته . ولم يكتف بذلك فاشترط الرضا والتسليم بهذا الحكم ، فهذه هى طبيعة الإيمان وثمرته : ﴿ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ .

* * *

● الحاكمون بغير ما أنزل الله :

فمن أعرض عن هذه النُذُر كلها ، وأصمّ أذنيه عن هذه الآيات ، وتلقى شرائعه وقوانينه ونظمه وتقاليده ، وقيمه وموازينه ومفاهيمه وتصوراته عن غير طريق رسول الله ﷺ ، ورضى بأن يُحكِّم فى هذه الأمور الخطيرة فلاسفة من الشرق أو الغرب ، أو علماء أو حكماء ، أو مشرّعين - سمهم كما تشاء - فقد ضاد الله فيما شرع ، وناصب الله ورسوله العداء ، ومرق من الدين كما يمرق السهم من الرميّة . ولا غرو أن حكم كتاب الله بالكفر والظلم والفسوق على مَنْ لم يحكم بما أنزل الله ، فقال فى سياق واحد من سورة المائدة : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ

فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (1) ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (2) ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ (3) .

واستعمال هذه الألفاظ فى القرآن الكريم يدل على أن معانيها متقاربة . قال تعالى : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (4) ، ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (5) ، ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ ﴾ (6) ، ولهذا جعل الفسوق مقابلاً للإيمان ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ﴾ (7) ، ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً ، لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ (8) ، وقال فى إبليس حين تمرد على الأمر بالسجود لآدم : ﴿ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (9) ، وفى سياق آخر قال : ﴿ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ (10) .

---

(1) المائدة : ٤٤
(2) المائدة : ٤٥
(3) المائدة : ٤٧
(4) البقرة : ٢٥٤
(5) النور : ٥٥
(6) العنكبوت : ٤٧
(7) الحجرات : ١١
(8) السجدة : ١٨
(9) البقرة : ٣٤
(10) الكهف : ٥٠

فالذى لا يحكم بما أنزل الله كافر أو ظالم أو فاسق ، أو جامع لهذه الصفات كلها ، وهل هو كفر أكبر يخرج من الملة أو كفر أصغر لا يخرج منها ؟

هذا يختلف باختلاف الأشخاص ومواقفهم ، فمن حكم بغير ما أنزل الله ، وهو يعتقد أنه عاص لله ، مخالف لأمره ، دفعه إلى ذلك الضعف واتباع الهوى ، وهو يرجو التوبة والمغفرة ، فكفره كفر أصغر .

ومن حكم بغير ما أنزل الله مستحلاً لذلك ، أو مستخفاً بحكم الله ، فقد دخل فى الكفر الأكبر والعياذ بالله ، وخصوصاً إذا اعتقد أن ما أنزل الله ، يمثل الجمود والتخلف والرجعية ! وما شرع الناس هو التطور والتقدم الذى يصلح به المجتمع وترتقى به الحياة !

ومن التحريف الظالم لأيات الخالق ، والسخرية الصارخة بعقول الخلق ، أن يقول قائل : إن هذه الآيات نزلت فى شأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ونسى هذا القائل الجرىء - أو تناسى - أن هذه الآيات المحكمة - وإن نزلت فى سياق خاص - قد جاءت بألفاظ عامة ، تتناول بحكمها جميع الأفراد الذين يشملهم مدلولها وهم

كل « مَن لم يحكم بما أنزل الله » ، فالمدار على عموم اللفظ ، لا على خصوص السبب كما قرر أئمة الإسلام .

ومحال أن يدمغ الله بالظلم والكفر والفسوق أهل الكتاب الأول ، لأنهم طرحوا ما أنزل الله وراءهم ظهرياً ، ولم يحكموا به ، ثم يبيح للمسلمين وحدهم - وهم أهل الكتاب الآخر الخاتم - أن يتخذوا كتاب الله مهجوراً ، ويتخذوا غيره منهاجاً ودستوراً !!

ما فائدة ذكر هذه الآيات في سياق الحديث عن أهل الكتاب ، إن لم يكن المقصود منها تحذير المسلمين أن يصنعوا مثل صنيعهم ، ويحكموا بغير شريعة ربهم ، فيُدمَغوا بمثل ما دُمغوا به ، ويحل عليهم عذاب الله وغضبه : ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ ؟ [1] .

لماذا أنزل الله للناس كتاباً ، وبعث لهم رسولاً ، إذا كان من حق الناس أن يهملوا الكتاب ، ويعصوا الرسول [2] ؟ وقد قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

---

(١) طه : ٨١

(٢) انظر : فتوى « الحكم بما أنزل الله » في الجزء الثاني من كتابي « فتاوى معاصرة » ص ٦٩٧ - ٧١٤ ، طبع دار الوفاء .

لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ ﴾ [1] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [2] ، ومن ثَمَّ خاطب الله رسوله بعد أن ذكر الآيات السابقة : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [3] ، ثم يقول فى الآية التالية : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [4] .

فهما حُكْمان لا ثالث لهما : إما الإسلام ، وإما الجاهلية .

وهما حَكَمان لا ثالث لهما : إما الله ، وإما الطاغوت .

---

(١) النساء : ١٠٥

(٢) النساء : ٦٤

(٣) المائدة : ٤٨

(٤) المائدة : ٤٩ - ٥٠

فليختر امرؤ لنفسه .... وليختر قوم لأنفسهم : إما الله والإسلام ، وإما الطاغوت والجاهلية ... ولا وَسَط دون ذلك .

أما الذين آمنوا فليس لهم الخيرة من أمرهم : إنهم مع حكم الله ورسوله ، إنهم مع الإسلام .. إنهم حرب على الطاغوت والجاهلية . إن شعارهم إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم : « سمعنا وأطعنا » .

وأما الذين كفروا فهم دائماً فى سبيل الطاغوت ، وهم دائماً متردّون فى حفر الجاهلية : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) .

* * *

● ملاحظتان مهمتان :

وهنا ملاحظتان مهمتان أود التنبيه عليهما :

الأولى : أن الحكم بما أنزل الله فريضة محكمة لا يخالف

---

(١) البقرة : ٢٥٧

فيها مسلم ، وهى مساوية لما شاع فى عصرنا من تعبير (الحاكمية لله) عَزَّ وجَلَّ ، وهى تعنى : الحاكمية التشريعية الآمرة الناهية ، المحللة والمحرمة ، المتفرّدة بالإلزام والتكليف للخلق كافة .

وقد توهم بعض الناس أن هذه الفكرة من مبتكرات المودودى فى باكستان ، أو سيد قطب فى مصر . والواقع : أن هذه الفكرة مأخوذة من علم « أصول الفقه » الإسلامى ، والأصوليون يذكرون ذلك فى مبحث « الحكم » من مقدمات علم الأصول ، وفى موضوع « الحاكم » من هو ؟ فكلهم متفقون على أن الحاكم هو الله ، أى صاحب الحق المطلق فى التشريع لخلقه ، حتى المعتزلة لا يخالفون فى ذلك ، كما بيّنه شارح « مسلّم الثبوت » من كتب الأصول المشهورة [1] .

والدلائل على ثبوت هذا المبدأ من القرآن والسُّنَّة بيِّنة واضحة . سقنا بعضها فى بيان فرضية الحكم بما أنزل الله .

---

(١) انظر على سبيل المثال : المستصفى فى علم الأصول للغزالى . مبحث الحاكم : ١/ ٨٣ ، وفواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت : ١/ ٢٥

الثانية : أن الحاكمية أو الحكم بما أنزل الله تعالى ، لا يلغى دور الإنسان ، فالإنسان هو الذى يفهم النصوص الموجهة إليه ، ويستنبط منها ، ويملأ الفراغ فيما لا نص فيه ، مما سميناه « منطقة العفو » وهى منطقة واسعة ، تركها الشارع قصداً ، رحمة بنا غير نسيان [1] ، فهنا يجول العقل المسلم ويصول ، ويجتهد فى ضوء النصوص والأصول .

* * *

• معنى قيام المجتمع على عقيدة الإسلام :

هذه هى العقيدة التى يقوم عليها المجتمع المسلم : عقيدة « لا إلَه إلا الله ، محمد رسول الله » ، ومعنى قيام المجتمع المسلم على العقيدة الإسلامية : أنه يقوم على احترام هذه العقيدة وتقديسها ، ويعمل على تثبيتها فى العقول والقلوب ، ويربى ناشئة المسلمين عليها ، ويرد عنها أباطيل المفترين ، وشبهات المضلين ، ويجلى فضائلها

---

(١) انظر فى ذلك : رسالتنا (عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية) العامل الأول ، وكتابنا (مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية) ص ١٥٢ ، طبعة مكتبة وهبة بالقاهرة .

وآثارها فى حياة الفرد والمجتمع ، عن طريق الأجهزة التوجيهية التى تؤثر فى سير المجتمع ، من المساجد والمدارس والصحافة والإذاعة والتليفزيون والمسرح والسينما والأدب بكل فنونه ، من شِعر ونثر وقصص وتمثيل .

ليس معنى قيام المجتمع المسلم على العقيدة الإسلامية إكراه غير المسلمين على التخلى عن عقائدهم ، كلا ، فذلك لم يخطر ببال المسلم من قبل ، ولن يخطر من بعد ، لأن القرآن حسم هذه القضية من قديم ، حين أعلن بصريح العبارة أنه ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (١) .

وقد أثبت التاريخ أن المجتمع الإسلامى ، فى عصور ازدهاره ، كان أكثر المجتمعات سماحة مع المخالفين له فى العقيدة ، بشهادة الأجانب أنفسهم .

معنى قيام المجتمع على العقيدة الإسلامية : أنه ليس مجتمعاً سائباً ، بل هو مجتمع ملتزم .. قد التزم عقيدة الإسلام ، فليس مجتمعاً مادياً ، ولا مجتمعاً علمانياً

---

(١) البقرة : ٢٥٦

(لا دينياً) ، ولا مجتمعاً وثنياً ، ولا مجتمعاً يهودياً أو نصرانياً ، ولا مجتمعاً ليبرالياً رأسمالياً ، ولا مجتمعاً اشتراكياً ماركسياً .

إنما هو مجتمع يدين بعقيدة التوحيد ، عقيدة الإسلام ، وعقيدة الإسلام تعلو ولا تُعلَى .... عقيدة الإسلام لا تقبل أن تكون على هامش الحياة فى المجتمع وأن تزاحمها عقيدة أخرى تبدل نظرة الناس إلى الله والإنسان ، والكون والحياة .

فليس بمجتمع مسلم ذلك الذى يختفى فى توجيهه اسم « الله » ليحل محله اسم « الطبيعة » فالأنهار من هبة الطبيعة ، والغابات منحة من الطبيعة ، والطبيعة هى التى أنشأت هذا الشىء وطوَّرت ذاك الشىء ، وليس هو الله خالق كل شىء ورب كل شىء ومدبر كل أمر .

إن تصور المجتمع الغربى للألوهية وعلاقتها بالكون : أن الله خلق الكون وتركه ، فليس له إشراف عليه ، ولا إحاطة به ، ولا تدبير له ، ويشبه أن يكون هذا مستمَداً من تصور الفلسفة اليونانية للإله ، وخاصة فلسفة « أرسطو » الذى لا يعلم الإله - عنده - شيئاً إلا عن ذاته : أما الكون فلا يدبر فيه أمراً ، ولا يعرف عنه خيراً

ولا شراً ، وأغرب منه فلسفة « أفلوطين » الذى لا يعلم الإلَه عنده شيئاً حتى عن نفسه !

أما تصور المجتمع المسلم للإلَه ، فتعبر عنه هذه الآيات وأمثالها : ﴿ سَبَّحَ للهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، يُحْيِى وَيُمِيتُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (١) .

وليس بمجتمع مسلم ذلك الذى ينكمش فيه « مفهوم

---

(١) الحديد : ١ - ٦

الإيمان » بالله ، والدار الآخرة ، ليحل محله الإيمان بالوجودية أو القومية أو الوطنية ، أو غير ذلك من الأوثان التى عبدها أناس هنا وهناك ، من دون الله أو مع الله ، وإن لم يسموها آلهة .

وليس بمجتمع مسلم ذلك الذى يتوارى فيه اسم « محمد » صلى الله عليه وسلم باعتباره الموجه المعصوم ، والأسوة المطاع ، لتبرز أسماء « ماركس » و« لينين » و« ماو » وغيرهم من مفكرى الشرق والغرب .

وليس بمجتمع مسلم ذلك الذى يُهجر فيه كتاب الله « القرآن » بوصفه مصدر الهداية ، والتشريع ، والحكم ، لتظهر كتب أخرى ، تضفى عليها القداسة ، وتؤخذ منها مناهج الفكر والتشريع والسلوك ، أو تُستمَد منها القيم والموازين والمُثُل .

وليس بمجتمع مسلم ذلك الذى يُسَب فيه الله - جَلَّ شأنه - وكتبه ورسُله ، والناس سكوت على هذا الكفر البواح ، لا يستطيعون أن يؤدبوا مرتداً كافراً ، أو يزجروا زنديقاً فاجراً ، حتى اجترأ ملحد أفّاك أن ينشر فى صحيفة علنية : أن الإنسان العربى الجديد هو الذى يعتقد أن الله والأديان دمى محنطة فى متحف التاريخ !

وليس بمجتمع مسلم ذلك الذى يسمح بعقيدة أخرى تناوئ العقيدة الإسلامية ، أو تزاحمها كالعقيدة الشيوعية ، أو غيرها من (الأيديولوچيات) الانقلابية الشمولية ، من الخطأ أن يظن ظان أن هذه الأيديولوچيات ليست عقيدة تناوئ الإسلام ، وإنما هى مذهب اقتصادى أو اجتماعى ، يتخذ أسلوباً معيناً فى تنظيم شؤون الحياة وعلاقاتها ، وليس له طابع دينى حتى يسمى « عقيدة » . والواقع أن هذه الأيديولوچيات - فى نظر أصحابها - فلسفة حياة كاملة ، وعقيدة شاملة ، تتضمن وجهة نظر إلى العالَم ، وإلى التاريخ ، وإلى الحياة ، وإلى الإنسان ، وإلى الله ، تخالف وجهة الإسلام ، ولهذا أطلق عليها وعلى أمثالها بعض المؤلفين : « أديان بغير وحى » [(١)] .

وليس بمجتمع مسلم ذلك الذى يجعل العقيدة على هامش حياته ، فلا تأخذ من مناهج التربية والتعليم ، ولا من مناهج الثقافة والفكر ، ولا من مناهج الإعلام والإرشاد ، ولا من أجهزة التوجيه والتأثير ، بصفة عامة ،

---

(١) انظر : كتابى « من أجل صحوة راشدة » .

إلا حيزاً ضئيلاً ، وموضعاً محدوداً ، فليس هى الموجه الأول ، ولا المحرك الأول ، ولا المؤثر الأول فى حياة الأفراد ، والأسر والجماعات ، وإنما هى شىء ثانوى يجىء فى ذيل القافلة ، وفى المكان الأخير إن بقى له مكان .

لقد كانت عقيدة الإسلام فى المجتمع الأول - الذى أنشأه رسول الله ﷺ ، وورثه من بعده صحابته ، ومَن تبعهم بإحسان - هى الدافع الأول ، والموجه الأول ، والمؤثر الأول ، فى حياتهم ، إن لم نقل الأوحد .

كانت العقيدة هى مصدر التصور والفكر ، وكانت هى أساس الترابط والتجمع ، وكانت هى أساس الحكم والتشريع ، وكانت هى الدافع إلى الحركة والانطلاق .... وكانت هى ينبوع الفضائل والأخلاق ... وكانت هى صانعة البطولات فى ميادين الجهاد والاستشهاد ، ومجالات البذل والإيثار .

هكذا كانت العقيدة وكان أثرها فى المجتمع المسلم الأول ، وهكذا يجب أن تكون ، وأن يكون تأثيرها فى كل مجتمع يريد أو يراد له أن يكون مسلماً اليوم أو غداً . . .

إن العقيدة الإسلامية - بكل أركانها وخصائصها - هى الأساس المكين ، لأى بنيان اجتماعى متين . وأى بنيان على غير عقيدة فهو بنيان على الرمال ، يوشك أن ينهار .

وأسوأ منه أن يراد بناء مجتمع ينتمى إلى الإسلام على غير عقيدة الإسلام ، وإن كتب عليه - زوراً - اسم الإسلام . إنه غش فى المواد الأساسية للبناء ، لا يلبث أن يسقط البناء كله على مَن فيه : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمينَ ﴾ (١) .

لقد رأينا المجتمع الشيوعى - أيام ازدهاره وسلطانه - يجسد العقيدة الماركسية وفلسفتها المادية . تَمثَّلَ ذلك فى دستوره الذى يعلن : أن لا إلَه والحياة مادة . وفى تشريعه وقوانينه ، وفى تربيته ، وتعليمه ، وفى ثقافته وإعلامه ، وفى سائر أنظمته ومؤسساته وسياساته ، وهذا شأن كل مجتمع عقائدى ، فلا غرو أن يكون المجتمع المسلم مرآة تعكس عقيدته وإيمانه ، ونظرته إلى الكون والإنسان والحياة ، وإلى رب الكون ، وبارئ الإنسان ، وواهب الحياة .

---

(١) التوبة : ١٠٩

المجتمع المسلم ومواجهة الرِدَّة

أشد ما يواجه المسلم من الأخطار : ما يهدد وجوده المعنوى ، أى ما يهدد عقيدته ، ولهذا كانت الرِدَّة عن الدين - الكفر بعد الإسلام - أشد الأخطار على المجتمع المسلم . وكان أعظم ما يكيد له أعداؤه أن يفتنوا أبناءه عن دينهم بالقوة والسلاح أو بالمكر والحيلة . كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ﴾ (١) .

وفى عصرنا تعرض المجتمع المسلم لغزوات عنيفة ، وهجمات شرسة ، تهدف إلى اقتلاعه من جذوره ، تمثلت فى الغزو التنصيرى ، الذى بدأ مع الاستعمار الغربى ، والذى لا يزال يمارس نشاطه فى العالَم الإسلامى ، وفى الجاليات والأقليات الإسلامية ، ومن أهدافه : تنصير

---

(١) البقرة : ٢١٧

المسلمين فى العالَم ، كما وضح ذلك فى مؤتمر « كلورادو » الذى عقد هناك سنة ١٩٧٨ . وقدمت له أربعون دراسة حول الإسلام والمسلمين ، وكيفية نشر النصرانية بينهم . ورصد لذلك ألف مليون دولار ، وأسس لذلك معهد « زويمر » لتخريج المتخصصين فى تنصير المسلمين .

كما تمثلت فى الغزو الشيوعى الذى اجتاح بلاداً إسلامية كاملة فى آسيا ، وفى أوروبا ، وعمل بكل جهد لإماتة الإسلام ، وإخراجه من الحياة نهائياً ، وتنشئة أجيال لا تعرف من الإسلام كثيراً ولا قليلاً .

وثالثة الأثافى : الغزو العلمانى اللادينى ، الذى لا يبرح يقوم بمهمته إلى اليوم فى قلب ديار الإسلام ، يستعلن حيناً ، ويستخفى أحياناً ، يطارد الإسلام الحق ، ويحتفى بالإسلام الخرافى ، ولعل هذا الغزو هو أخبث تلك الأنواع وأشدها خطراً .

وواجب المجتمع المسلم - لكى يحافظ على بقائه - أن يقاوم الرِدَّة من أى مصدر جاءت ، وبأى صورة ظهرت ، ولا يدع لها الفرصة ، حتى تمتد وتنتشر ، كما تنتشر النار فى الهشيم .

وهذا ما صنعه أبو بكر والصحابة - رضى الله عنهم - معه ، حين قاتلوا أهل الرِدَّة ، الذين اتبعوا الأنبياء الكذبة ، مسيلمة وسجاح والأسدى والعنسى ، وغيرهم ، وكادوا يقضون على الإسلام فى مهده .

ومن الخطر كل الخطر : أن يُبتلى المجتمع المسلم بالمرتدين المارقين ، وتشيع بين جنباته الرِدَّة ، ولا يجد مَن يواجهها ويقاومها . وهو ما عبّر عنه أحد العلماء الأدباء عن الرِدَّة التى ذاعت فى هذا العصر بقوله : « رِدَّة ولا أبا بكر لها » ! [1] .

ولا بد من مقاومة الرِدَّة الفردية وحصارها ، حتى لا تتفاقم ويتطاير شررها ، وتغدو رِدَّة جماعية ، فمعظم النار من مستصغر الشرر .

ومن ثَمَّ أجمع فقهاء الإسلام على عقوبة المرتد - وإن اختلفوا فى تحديدها - وجمهورهم على أنها القتل ، وهو رأى المذاهب الأربعة ، بل الثمانية .

وفيها وردت جملة أحاديث صحيحة عن عدد من

---

(١) عنوان رسالة لطيفة للعلامة أبى الحسن الندوى .

الصحابة : عن ابن عباس وأبى موسى ومعاذ وعلىّ وعثمان وابن مسعود وعائشة وأنس وأبى هريرة ومعاوية بن حيدة .

وقد جاءت بصيغ مختلفة ، مثل حديث ابن عباس : « من بدَّل دينه فاقتلوه » (رواه الجماعة إلا مسلماً ، ومثله عن أبى هريرة عند الطبرانى بإسناد حسن ، وعن معاوية ابن حيدة بإسناد رجاله ثقات) (١) .

وحديث ابن مسعود : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أنْ لا إلَه إلا الله ، وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه ، المفارق للجماعة » (رواه الجماعة) .

وفى بعض صيغه عن عثمان : « .... رجل كفر بعد إسلامه ، أو زنى بعد إحصانه ، أو قتل نفساً بغير نفس » (رواه الترمذى وحسَّنه والنسائى وابن ماجه ، وقد صح هذا المعنى من رواية ابن عباس أيضاً وأبى هريرة وأنس) .

قال العلامة ابن رجب : والقتل بكل واحدة من هذه الخصال متفق عليه بين المسلمين (٢) .

---

(١) أورد ذلك الهيثمى فى مجمع الزوائد : ٦/ ٢٦١

(٢) انظر : شرح « الحديث الرابع عشر » من « جامع العلوم والحكم » بتحقيق شعيب الأرناؤوط - طبع الرسالة .

وقد نفذ عليّ كرَّم الله وجهه عقوبة الرِدَّة فى قوم ادَّعوا ألوهيته ، فحرقهم بالنار ، بعد أن استتابهم وزجرهم ، فلم يتوبوا ولم يزدجروا ، فطرحهم فى النار ، وهو يقول :

لما رأيت الأمر أمراً منكراً   أججت نارى ، ودعوت قنبراً

وقنبر هو خادمه وغلامه (١) .

وقد اعترض عليه ابن عباس بالحديث الآخر : « لا تعذِّبوا بعذاب الله » ، ورأى أن الواجب أن يُقتلوا لا أن يُحرقوا . فكان خلاف ابن عباس فى الوسيلة لا فى المبدأ .

وكذلك نفذ أبو موسى ومعاذ القتل فى يهودى فى اليمن أسلم ثم ارتد . وقال معاذ : قضاء الله ورسوله (متفق عليه) .

وروى عبد الرزاق : أن ابن مسعود أخذ قوماً ارتدوا عن الإسلام من أهل العراق ، فكتب فيهم إلى عمر . فكتب إليه : أن أعرض عليهم دين الحق ، وشهادة أنْ لا إلَه إلا الله ، فإن قبلوها فخلّ عنهم ، وإذا لم يقبلوها

---

(١) انظر : نيل الأوطار : ٥/٨ ، ٧ - طبع دار الجيل .

فاقتلهم .. فقبلها بعضهم فتركه ، ولم يقبلها بعضهم فقتله [1] .

وروى عن أبى عمرو الشيبانى أن المستورد العجلى تنصّر بعد إسلامه ، فبعث به عتبة بن فرقد إلى علىّ ، فاستتابه فلم يتب ، فقتله [2] .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية : أن النبى ﷺ قبل توبة جماعة من المرتدين ، وأمر بقتل جماعة آخرين ، ضموا إلى الرِدَّة أموراً أخرى تتضمن الأذى والضرر للإسلام والمسلمين ، مثل أمره بقتل مِقْيَس بن حبابة يوم الفتح ، لما ضم إلى رِدَّته قتل المسلم وأخذ المال ، ولم يتب قبل القدرة عليه ، وأمر بقتل العُرَنيين لما ضموا إلى رِدَّتهم نحواً من ذلك . وكذلك أمر بقتل ابن خطل لما ضم إلى رِدَّته السب وقتل المسلم . وأمر بقتل ابن أبى سرح ، لما ضم إلى رِدَّته الطعن عليه والافتراء . وفرّق ابن تيمية بين النوعين : أن الرِدَّة المجرَدة تُقبل معها التوبة ، والرِدَّة

---

(١) رواه عبد الرزاق فى مصنفه : ١٠/١٦٨ ، الأثر رقم (١٨٧٠٧) .

(٢) المصنف - المرجع السابق ، الأثر (١٨٧١٠) .

التى فيها محاربة الله ورسوله والسعى فى الأرض بالفساد لا تقبل فيها التوبة قبل القدرة [(١)] .

وقد قيل : لم يُنقل أنَّ رسول الله ﷺ قتل مرتداً ، وما نقله ابن تيمية ينقض هذه الدعوى ، ولو صح ذلك فلأن هذه الجريمة لم تظهر فى عهده ، كما لم يعاقب أحداً عمل عمل قوم لوط . إذ لم تستعلن فى عهده صلى الله عليه وسلم .

ومع أن الجمهور قالوا بقتل المرتد ، فقد ورد عن عمر ابن الخطاب ما يخالف ذلك :

روى عبد الرزاق والبيهقى وابن حزم : أنّ أنساً عاد من « تُستَر » فقدم على عمر ، فسأله : ما فعل الستة الرهط من بكر بن وائل ، الذين ارتدوا عن الإسلام ، فلحقوا بالمشركين ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، قوم ارتدُّوا عن الإسلام ، ولحقوا بالمشركين ، قُتِلوا بالمعركة . فاسترجع عمر (أى قال : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون) قال أنس :

---

(١) الصارم المسلول لابن تيمية ص ٣٦٨ ، مطبعة السعادة - بتحقيق محمد محى الدين عبد الحميد .

وهل كان سبيلهم إلا القتل ؟ قال : نعم ، كنت أعرض عليهم الإسلام ، فإن أبوا أودعتهم السجن (١) .

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف : ١٠/١٦٥ ، ١٦٦ ، الأثر (١٨٦٩٦) ، والبيهقى فى السنن : ٨/٢٠٧ ، وسعيد بن منصور ص ٣ رقم (٢٥٧٣) ، وابن حزم فى المحلى : ١١/٢٢١ ، مطبعة الإمام .

ومعنى هذا الأثر : أن « عمر » لم ير عقوبة القتل لازمة للمرتد فى كل حال ، وأنها يمكن أن تسقط أو تؤجل ، إذا قامت ضرورة لإسقاطها أو تأجيلها . والضرورة هنا : حالة الحرب ، وقرب هؤلاء المرتدين من المشركين وخوف الفتنة عليهم ، ولعل عمر قاس هذا على ما جاء عن النبى ﷺ فى قوله : « لا تقطع الأيدى فى الغزو » ، وذلك خشية أن تدرك السارق الحمية فيلحق بالعدو .

وهناك احتمال آخر : وهو أن يكون رأى « عمر » أنَّ النبى ﷺ حين قال : « مَن بدّل دينه فاقتلوه » قالها بوصفه إماماً للأمة ، ورئيساً للدولة ، أى أن هذا قرار من قرارات السلطة التنفيذية ، وعمل من أعمال السياسة الشرعية ، وليس فتوى وتبليغاً عن الله ، تلزم به الأمة فى كل زمان ومكان وحال . فيكون قتل المرتد وكل من بدّل دينه ، من حق الإمام ، ومن اختصاصه وصلاحية سلطته ، فإذا أمر بذلك نفذ ، وإلا فلا .

على نحو ما قال الحنفية والمالكية فى حديث « مَن قتل قتيلاً فله سلبه » =

وهذا هو قول إبراهيم النخعى ، وكذلك قال الثورى : هذا الذى نأخذ به [(١)] . وفى لفظ له : يؤجل ما رجيت توبته [(٢)] .

والذى أراه : أنَّ العلماء فرَّقوا فى أمر البدعة بين المغلظة والمخففة ، كما فرَّقوا فى المبتدعين بين الداعية وغير الداعية . وكذلك يجب أن نفرِّق فى أمر الرِدَّة بين الرِدَّة الغليظة والخفيفة ، وفى أمر المرتدين بين الداعية وغير الداعية .

فما كان من الرِدَّة مغلّظاً - كرِدَّة سلمان رشدى - وكان المرتد داعية إلى بدعته بلسانه أو بقلمه ، فالأولى فى مثله التغليظ فى العقوبة ، والأخذ بقول جمهور الأمة ، وظاهر الأحاديث ، استئصالاً للشر ، وسداً لباب الفتنة ، وإلا فيمكن الأخذ بقول النخعى والثورى وهو ما روى عن الفاروق عمر .

= وما قال الحنفية فى حديث : « مَن أحيا أرضاً ميتة فهى له » (انظر كتابنا : الخصائص العامة للإسلام ص ٢١٧) .

(١) المصنف جـ ١٠ ، الأثر (١٨٦٩٧) .

(٢) ذكره ابن تيمية فى « الصارم المسلول » ص ٣٢١

إن المرتد الداعية إلى الرِدَّة ليس مجرد كافر بالإسلام ، بل هو حرب عليه وعلى أمته ، فهو مندرج ضمن الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً ، والمحاربة - كما قال ابن تيمية - نوعان : محاربة باليد ، ومحاربة باللسان ، والمحاربة باللسان فى باب الدين ، قد تكون أنكى من المحاربة باليد ، ولذا كان النبى عليه الصلاة والسلام يقتل مَن كان يحاربه باللسان ، مع استبقائه بعض مَن حاربه باليد . وكذلك الإفساد قد يكون باليد ، وقد يكون باللسان ، وما يفسده اللسان من الأديان أضعاف ما تفسده اليد . . فثبت أن محاربة الله ورسوله باللسان أشد ، والسعى فى الأرض بالفساد باللسان أوكد » ا هـ [1] .

والقلم أحد اللسانين ، كما قال الحكماء ، بل ربما كان القلم أشد من اللسان وأنكى ، ولا سيما فى عصرنا ، لإمكان نشر ما يُكتب على نطاق واسع .

هذا إلى أن المرتد المصر على ردته محكوم عليه بالإعدام الأدبى من الجماعة المسلمة ، فهو محروم من

---

(١) انظر : الصارم المسلول - لابن تيمية ص ٣٨٥

ولائها وحبها ومعاونتها ، فالله تعالى يقول : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (١) ، وهذا أشد من القتل الحسى عند ذوى العقول والضمائر من الناس .

* * *

● سر التشديد فى عقوبة الرِدَّة :

وسر هذا التشديد فى مواجهة الرِدَّة : أن المجتمع المسلم يقوم - أول ما يقوم - على العقيدة والإيمان ، فالعقيدة أساس هويته ، ومحور حياته ، وروح وجوده . ولهذا لا يسمح لأحد أن ينال من هذا الأساس ، أو يمس هذه الهوية . ومن هنا كانت « الرِدَّة المعلنة » كبرى الجرائم فى نظر الإسلام ؛ لأنها خطر عل شخصية المجتمع وكيانه المعنوى ، وخطر على الضرورية الأولى من الضروريات الخمس (الدين والنفس والنسل والعقل والمال) والدين أولها ، لأن المؤمن يضحى بنفسه ووطنه وماله من أجل دينه .

والإسلام لا يُكره أحداً على الدخول فيه ، ولا على الخروج من دينه إلى دين ما ، لأن الإيمان المعتد به هو ما كان

---

(١) المائدة : ٥١

عن اختيار واقتناع . وقد قال تعالى فى القرآن المكى : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) ، وفى القرآن المدنى : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ، قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (٢) .

ولكنه لا يقبل أن يكون الدين ألعوبة ، يدخل فيه اليوم ويخرج منه غداً ، على طريقة بعض اليهود الذين قالوا : ﴿ آمِنُوا بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٣) .

ولا يعاقب الإسلام بالقتل المرتد الذى لا يجاهر بردَّته ، ولا يدعو إليها غيره ، ويدع عقابه إلى الآخرة إذا مات على كفره ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٤) . وقد يعاقبه عقوبة تعزيرية مناسبة .

---

(١) يونس : ٩٩ — (٢) البقرة : ٢٥٦

(٣) آل عمران : ٧٢ — (٤) البقرة : ٢١٧

إنما يُعاقَب المرتد المجاهر ، وبخاصة الداعية للرِدَّة ، حماية لهُوِيَّة المجتمع ، وحفاظاً على أسسه ووحدته ، ولا يوجد مجتمع في الدنيا إلا وعنده أساسيات لا يسمح بالنيل منها ، مثل : الهُوية والانتماء والولاء ، فلا يقبل أى عمل لتغيير هوية المجتمع ، أو تحويل ولائه لأعدائه ، وما شابه ذلك .

ومن أجل هذا : اعتبرت الخيانة للوطن ، وموالاة أعدائه - بالإلقاء بالمودة إليهم ، وإفشاء الأسرار لهم - جريمة كبرى . ولم يقل أحد بجواز إعطاء المواطن حق تغيير ولائه الوطنى لمن شاء ، ومتى شاء .

والرِدَّة ليست مجرد موقف عقلى ، بل هى أيضاً تغيير للولاء ، وتبديل للهوية ، وتحويل للانتماء . فالمرتد ينقل ولاءه وانتماءه من أمة إلى أمة أخرى ، ومن وطن إلى وطن آخر ، أى من دار الإسلام إلى دار أخرى . فهو يخلع نفسه من أمة الإسلام ، التى كان عضواً فى جسدها ، وينضم بعقله وقلبه وإرادته إلى خصومها . ويعبر عن ذلك الحديث النبوى بقوله : « التارك لدينه ، المفارق للجماعة » ، كما فى حديث ابن مسعود المتفق عليه ، وكلمة « المفارق للجماعة » وصف كاشف لا منشئ ، فكل مرتد عن دينه مفارق للجماعة .

ومهما يكن من جُرْمه ، فنحن لا نشق عن قلبه ، ولا نتسور عليه بيته ، ولا نحاسبه إلا على ما يعلنه جهرة : بلسانه ، أو قلمه ، أو فعله ، مما يكوّن كفراً بواحاً صريحاً ، لا مجال فيه لتأويل أو احتمال ، فأى شك فى ذلك يُفسَّر لمصلحة المتهم بالرِدَّة .

إنَّ التهاون فى عقوبة المرتد المعالن الداعية ، يعرِّض المجتمع كله للخطر ، ويفتح عليه باب فتنة لا يعلم عواقبها إلا الله سبحانه ، فلا يلبث المرتد أن يغرر بغيره ، وخصوصاً من الضعفاء والبسطاء من الناس ، وتتكوَّن جماعة مناوئة للأمة ، تستبيح لنفسها الاستعانة بأعداء الأمة عليها ، وبذلك تقع فى صراع وتمزق فكرى واجتماعى وسياسى ، قد يتطور إلى صراع دموى ، بل حرب أهلية ، تأكل الأخضر واليابس .

وهذا ما حدث بالفعل فى أفغانستان : مجموعة محدودة مرقوا من دينهم ، واعتنقوا العقيدة الشيوعية بعد أن درسوا فى روسيا ، وجُنِّدوا فى صفوف الحزب الشيوعى ، وفى غفلة من الزمن وثبوا على الحكم ، وطفقوا يغيرون هُوية المجتمع كله ، بما تحت أيديهم من سلطات وإمكانات ،

ولم يُسلِّم أبناء الشعب الأفغانى لهم ، بل قاوموا ثم قاوموا ، واتسعت المقاومة ، التى كوّنت الجهاد الأفغانى الباسل ، ضد المرتدين الشيوعيين ، الذين لم يبالوا أن يستنصروا على أهليهم وقومهم بالروس ، يدكون وطنهم بالدبابات ، ويقذفونه بالطائرات ، ويدمرونه بالقنابل والصواريخ ، وكانت الحرب الأهلية ، التى استمرت عشر سنوات ، وكان ضحاياها الملايين من القتلى والمعوَّقين والمصابين واليتامى والأرامل والثكالى ، والخراب الذى أصاب البلاد ، وأهلك الزرع والضرع .

كل هذا لم يكن إلا أثراً للغفلة عن المرتدين ، والتهاون فى أمرهم ، والسكوت على جريمتهم فى أول الأمر ، ولو عوقب هؤلاء المارقون الخونة ، قبل أن يستفحل أمرهم ، لوقى الشعب والوطن شرور هذه الحروب الضروس وآثارها المدمرة على البلاد والعباد .

* * *

● أمور مهمة تجب مراعاتها :

والذى أريد أن أذكره هنا جملة أمور :

الأول : أنّ الحكم بردَّة مسلم عن دينه أمر خطير جداً ،

يترتب عليه حرمانه من كل ولاء وارتباط بالأسرة والمجتمع ، حتى إنه يُفرَّق بينه وبين زوجه وأولاده ، إذ لا يحل لمسلمة أن تكون فى عصمة كافر [1] ، كما أن أولاده لم يعد مؤتمناً عليهم ، فضلاً عن العقوبة المادية التى أجمع عليها الفقهاء فى جملتها .

لهذا وجب الاحتياط كل الاحتياط عند الحكم بتكفير مسلم ثبت إسلامه لأنه مسلم بيقين ، فلا يُزال اليقين بالشك .

ومن أشد الأمور خطراً : تكفير مَن ليس بكافر ، وقد حذَّرت من ذلك السُّنَّة النبوية ، أبلغ التحذير .

---

(١) للقضاء المصرى فى ذلك سوابق رائعة فى التفريق بين الزوجين بسبب اعتناق البهائية ، وهناك حكم قديم للمستشار على على منصور ، نشر فى رسالة خاصة ، وأيَّد ذلك مجلس الدولة فى حكم صدر فى سنة ١١/٦/١٩٥٢ يقول : « إن أحكام الردَّة فى شأن البهائيين واجبة التطبيق جملة وتفصيلاً ، ولا يغير من هذا النظر كون قانون العقوبات الحالى لا ينص على إعدام المرتد . وليتحمل المرتد (البهائى) على الأقل بطلان زواجه ، ما دام بالبلاد جهات قضائية ، لها ولاية القضاء ، بصفة أصلية ، أو بصفة تبعية » .

وقد كتبت في ذلك رسالة « ظاهرة الغلو في التكفير » لمقاومة تلك الموجة العاتية ، التي انتشرت في وقت ما : التوسع في التكفير ، ولا يزال يوجد مَن يعتنقها .

الثاني : أنَّ الذى يملك الفتوى بردَّة امرئ مسلم ، هم الراسخون فى العلم ، من أهل الاختصاص ، الذين يميزون بين القطعي والظنى ، بين المحكم والمتشابه ، بين ما يقبل التأويل وما لا يقبل التأويل ، فلا يكفِّرون إلا بما لا يجدون له مخرجاً ، مثل : إنكار المعلوم من الدين بالضرورة ، أو وضعه موضع السخرية من عقيدة أو شريعة ، ومثل سب الله تعالى ورسوله وكتابه علانية ، ونحو ذلك .

مثال ذلك : ما أفتى به العلماء من ردَّة سلمان رشدى ، ومثله : رشاد خليفة ، الذى بدأ بإنكار السُّنَّة ، ثم أنكر آيتين من القرآن فى آخر سورة التوبة ، ثم ختم كفره بدعوى أنه رسول الله ، قائلاً : إنّ محمداً ﷺ خاتم النبيين ، وليس خاتم المرسلين !! وقد صدر بذلك قرار من مجلس المجتمع الفقهى لرابطة العالَم الإسلامى .

ولا يجوز ترك مثل هذا الأمر إلى المتسرعين أو الغلاة ، أو قليلى البضاعة من العلم ، ليقولوا على الله ما لا يعلمون .

الثالث : أنَّ الذى ينفذ هذا هو ولى الأمر الشرعى ، بعد حكم القضاء الإسلامى المختص ، الذى لا يحتكم إلا إلى شرع الله عزَّ وجَلَّ ، ولا يرجع إلا إلى المحكمات البيّنات من كتاب الله تعالى وسُـنَّة رسوله ﷺ ، وهما اللذان يُرجع إليهما إذا اختلف الناس : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (١) .

والأصل فى القاضى فى الإسلام أن يكون من أهل الاجتهاد ، فإذا لم يتوافر فيه ذلك استعان بأهل الاجتهاد ، حتى يتبين له الحق ، ولا يقضى على جهل ، أو يقضى بالهوى ، فيكون من قضاة النار .

الرابع : أن جمهور الفقهاء قالوا بوجوب استتابة المرتد ، قبل تنفيذ العقوبة فيه . بل قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتاب « الصارم المسلول على شاتم الرسول » : هو إجماع الصحابة رضى الله عنهم ، وبعض الفقهاء حددها بثلاثة أيام ، وبعضهم بأقل ، وبعضهم بأكثر ، ومنهم مَن قال :

---

(١) النساء : ٥٩

يُستتاب أبداً . واستثنى بعضهم الزنديق ، لأنه يُظهر غير ما يُبطن ، فلا توبة له ، وكذلك ساب الرسول ﷺ ، لحرمة رسول الله وكرامته ، فلا تُقبل منه توبة ، وألّف ابن تيمية كتابه فى ذلك .

والمقصود بذلك إعطاؤه الفرصة ليراجع نفسه ، عسى أن تزول عنه الشبهة ، وتقوم عليه الحُجَّة ، إن كان يطلب الحقيقة بإخلاص ، وإن كان له هوى ، أو يعمل لحساب آخرين ، يوليه الله ما تولى .

ومن المعاصرين مَن قال : إن قبول التوبة إلى الله وليس إلى الإنسان ، ولكن هذا فى أحكام الآخرة . أما فى أحكام الدنيا فنحن نقبل التوبة الظاهرة ، ونقبل الإسلام الظاهر ، ولا ننقب عن قلوب الخلق ، فقد أمرنا أن نحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر . وقد صح فى الحديث أن مَن قالوا : « لا إلَه إلا الله » عصموا دماءهم وأموالهم ، وحسابهم على الله تعالى . يعنى فيما انعقدت عليه قلوبهم .

ومن هنا نقول : إن إعطاء عامة الأفراد حق الحكم على شخص ما بالرِدَّة ، ثم الحكم عليه باستحقاق العقوبة ،

وتحديدها بأنها القتل لا غير ، وتنفيذ ذلك بلا هوادة - يحمل خطورة شديدة على دماء الناس وأموالهم وأعراضهم ، لأن مقتضى هذا : أن يجمع الشخص العادى - الذى ليس له علم أهل الفتوى ، ولا حكمة أهل القضاء ، ولا مسؤولية أهل التنفيذ - سلطات ثلاثاً فى يده : يفتى - وبعبارة أخرى : يتهم - ويحكم وينفذ ، فهو الإفتاء والادعاء والقضاء والشرطة جميعاً !!

* *

● اعتراضات مردودة لبعض المعاصرين :

ولقد اعترض بعض الكاتبين فى عصرنا - من غير أهل العلم الشرعى - على عقوبة الرِدَّة بأنها لم ترد فى القرآن الكريم ، ولم ترد إلا فى حديث من أحاديث الآحاد ، وحديث الآحاد لا يؤخذ به فى الحدود ، فهم لذلك ينكرونها .

وهذا الكلام مردود من عدة أوجه :

أولاً : أنَّ السُّنَّة الصحيحة مصدر للأحكام العملية باتفاق جميع المسلمين ، وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ

اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ ﴾ [1] ، وقال : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ [2] .

وقد صحَّت الأحاديث بقتل المرتد ، ونفذه الصحابة فى عهد الراشدين .

والقول بأن أحاديث الآحاد لا يؤخذ بها فى الحدود غير مسلّم ، فجميع المذاهب المتبوعة أخذت بأحاديث الآحاد ، فى عقوبة شارب الخمر ، مع أن ما ورد فى عقوبة الرِدَّة أصح وأوفر وأغزر مما ورد فى عقوبة شرب الخمر .

ولو صح ما زعمه هؤلاء : أن أحاديث الآحاد لا يُعمل بها فى الأحكام ، لكان معناه : إلغاء السُّنَّة من مصدرية التشريع الإسلامى ، أو على الأقل : إلغاء ٩٥٪ - إن لم نقل ٩٩٪ منها . ولم يعد هناك معنى لقولنا : اتباع الكتاب والسُّنَّة .

فمن المعروف لدى أهل العلم : أن أحاديث الآحاد هى الجمهرة العظمى من أحاديث الأحكام . والحديث المتواتر - الذى هو مقابل الآحاد - نادر جداً ، حتى زعم بعض

---

(١) النور : ٥٤ (٢) النساء : ٨٠

أئمة الحديث أنه لا يكاد يوجد ، كما ذكر ذلك الإمام ابن الصلاح فى مقدمته الشهيرة فى علوم الحديث .

على أن كثيراً ممن يتناولون هذا الأمر ، لا يدركون معنى حديث الآحاد ، ويحسبون أنه الذى رواه واحد فقط ، وهذا خطأ . فالمراد بحديث الآحاد : ما لم يبلغ درجة التواتر ، وقد يرويه اثنان أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر من الصحابة ، وأضعافهم من التابعين .

وحديث قتل المرتد قد رواه جم غفير من الصحابة ، ذكرنا عدداً منهم ، فهو من الأحاديث المستفيضة المشهورة .

ثانياً : أنّ من مصادر التشريع المعتمدة : الإجماع ، وقد أجمع فقهاء الأمة ، من كل المذاهب (السُّنِّية وغير السُّنِّية) ، ومن خارج المذاهب ، على عقوبة المرتد ، وأوشكوا أن يتفقوا على أنها القتل ، إلا ما روى عن عمر والنخعى والثورى ، ولكن العقوبة - فى الجملة - مجمع عليها .

ثالثاً : أن من علماء السَّلَف مَن قال : إنّ آية المحاربة المذكورة فى سورة المائدة تختص بالمرتدّين ، وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ

وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ . . . ﴾ الآية [1] .

وممن قال بأن هذه الآية فى المرتدين أبو قلابة وغيره [2] .

وقد نقلنا من كلام ابن تيمية : أنَّ محاربة الله ورسوله باللسان أشد من المحاربة باليد ، وكذلك الإفساد فى الأرض ، مما يؤيد ذلك : أنَّ الأحاديث التى قررت استباحة دم المسلم بإحدى ثلاث ، ذكر بعضها : « ورجل خرج محارباً لله ورسوله ، فإنه يُقتل أو يُصلب أو يُنفى من الأرض » ، كما فى حديث عائشة بدلاً من عبارة « ارتد بعد إسلام » أو « التارك لدينه » . . . إلخ .

وهو ما يدل على أنَّ الآية تشمل فيما تشمل المرتدِّين الداعين إلى ردَّتهم .

وفى القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ﴾ [3] .

---

(1) المائدة : ٣٣ (2) انظر : جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٣٢٠

(3) المائدة : ٥٤

وهذا يدل على أنَّ الله هيأ للمرتدِّين مَن يقاومهم ، من المؤمنين المجاهدين ، الذين وصفهم الله بما وصفهم به ، مثل أبى بكر والمؤمنين معه ، الذين أنقذوا الإسلام من فتنة الرِدَّة .

وكذلك جاءت مجموعة من الآيات فى شأن المنافقين ، تُبيّن أنهم حموا أنفسهم من القتل بسبب كفرهم عن طريق الأيمان الكاذبة ، والحلف الباطل لإرضاء المؤمنين ، كما فى قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُواْ أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ [1] ، ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ﴾ [2] ، ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ . . . ﴾ الآية [3] ، فهم ينكرون أنهم كفروا ، ويؤكدون ذلك بأيمانهم ، ويحلفون أنهم لم يتكلموا بكلمة الكفر ، فدلّ ذلك أنّ الكفر إذا ثبت عليهم بالبيِّنة ، فإن جُنتهم تكون قد انخرمت ، وأيمانهم الفاجرة لم تُغْنِ عنهم شيئاً [4] .

* * *

(١) المجادلة : ١٦ (٢) التوبة : ٩٦ (٣) التوبة : ٧٤

(٤) انظر : الصارم المسلول لابن تيمية ص ٣٤٦ ، ٣٤٧

● رِدَّة السلطان :

وأخطر أنواع الرِدَّة : رِدَّة السلطان ، رِدَّة الحكم ، الذى يُفترض فيه أن يحرس عقيدة الأمة ، ويقاوم الرِدَّة ، ويطارد المرتدين ، ولا يُبقى لهم من باقية فى رحاب المجتمع المسلم ، فإذا هو نفسه يقود الرِدَّة ، سراً وجهراً ، وينشر الفسوق سافراً ومقنّعاً ، ويحمى المرتدّين ، ويفتح لهم النوافذ والأبواب ، ويمنحهم الأوسمة والألقاب ، ويصبح الأمر كما قال المثل : « حاميها حراميها » . . أو كما قال الشاعر العربى :

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب ؟!

نرى هذا الصنف من الحكام ، موالياً لأعداء الله ، معادياً لأولياء الله ، مستهيناً بالعقيدة ، مستخفاً بالشريعة ، غير موقر للأوامر والنواهى الإلَهية والنبوية ، مهيناً لكل مقدسات الأمة ورموزها ، من الصحابة الأبرار ، والآل الطهار ، والخلفاء الأخيار ، والأئمة الأعلام ، وأبطال الإسلام ، وهؤلاء يعتبرون التمسك بفرائض الإسلام جريمة وتطرفاً ، مثل الصلاة فى المساجد للرجال ، والحجاب للنساء .

ولا يكتفون بذلك ، بل يعملون وفق فلسفة « تجفيف المنابع » التي جاهروا بها ، في التعليم والإعلام والثقافة ، حتى لا تنشأ عقلية مسلمة ، ولا نفسية مسلمة .

ولا يقفون عند هذا الحد ، بل يطاردون الدعاة الحقيقيين ، ويغلقون الأبواب في وجه كل دعوة أو حركة صادقة ، تريد أن تجدد الدين ، وتنهض بالدنيا على أساسه .

والغريب أن بعض هذه الفئات - مع هذه الرِدَّة الظاهرة - تحرص على أن يبقى لها عنوان الإسلام ، لتستغله في هدم الإسلام ، ولتعاملهم الأمة على أنهم مسلمون ، وهم يقوِّضون بنيانها من الداخل ، وبعضها تجتهد أن تتمسح بالدين ، بتشجيع التدين الزائف ، وتقريب الذين يحرقون لها البخور من رجاله ، ممن سماهم الناس « علماء السُلْطة ، وعملاء الشرطة » !

وهنا يتعقد الموقف ، فمَن الذى يُقيم الحد على هؤلاء ؟ بل مَن الذى يفتى بكفرهم أولاً ، وهو كفر بواح كما سماه الحديث ؟ [1] ، ومَن الذين يحكم برِدَّتهم وأجهزة الإفتاء الرسمى والقضاء الرسمى فى أيديهم ؟

---

(١) إشارة إلى حديث عبادة بن الصامت فى الصحيحين : =

ليس هناك إلا « الرأى العام » المسلم ، والضمير الإسلامى العام ، الذى يقوده الأحرار من العلماء والدعاة وأهل الفكر ، والذى لا يلبث . إذا سُدَّت أمامه الأبواب ، وقطِّعت دونه الأسباب - أن يتحوَّل إلى بركان ينفجر فى وجوه الطغاة المرتدِّين . فليس من السهل أن يُفرِّط المجتمع المسلم فى هُويته ، أو يتنازل عن عقيدته ورسالته ، التى هى مبرر وجوده ، وسر بقائه .

وقد جرَّب ذلك الاستعمار الغربى الفرنسى في الجزائر ، والاستعمار الشرقى الروسى فى الجمهوريات الإسلامية فى آسيا ، ورغم قسوة التجربة وطولها هنا وهناك ، لم تستطع اجتثاث جذور الهُوية الإسلامية ، والشخصية الإسلامية ، وذهب الاستعمار والطغيان ، وبقى الإسلام ، والشعب المسلم .

غير أن الحرب التى شُنَّت على الإسلام ودعاته من بعض الحكام (الوطنيين) ! العلمانيين والمتغربين فى بعض

= بايعنا رسول الله ﷺ على . . . . . . وألا ننازع الأمر أهله ، قال : « إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان » .

الأقطار - بعد استقلالها - كانت أحدّ عداوة ، وأشد ضراوة ، من حرب المستعمرين .

* * *

● الرِدَّة المغلّفة :

ولا يفوتنا هنا أن ننبه على نوع من الرِدَّة لا يتبجح تَبجح المرتدين المعالنين ، فهو أذكى من أن يعلن الكفر بَوَاحاً صُراحاً ، بل يغلّفه بأغلفة شتَّى ، ويتسلل به إلى العقول تسلل الأسقام فى الأجسام ، لا تراه حين يغزو الجسم ، ولكن بعد أن يبدو مرضه ، ويظهر عرضه ، فهو لا يقتل بالرصاص يدوى ، بل بالسم البطئ ، يضعه فى العسل والحلوى . وهذا يدركه الراسخون فى العلم ، والبصراء فى الدين ، ولكنهم لا يملكون أن يصنعوا شيئاً أمام مجرمين محترفين ، لا يمكنون من أنفسهم ، ولا يدعون للقانون فرصة ليمسك بخناقهم . فهؤلاء هم « المنافقون » الذين هم فى الدرك الأسفل من النار .

إنها « الرِدَّة الفكرية » التى تطالعنا كل يوم آثارها ؛ فى صحف تُنشر ، وكتب توزع ، ومجلات تُباع ،

وأحاديث تُذاع ، وبرامج تُشاهَد ، وتقاليد تُروّج ، وقوانين تُحكّم .

وهذه الرِدَّة المغلفة - فى رأيى - أخطر من الرِدَّة المكشوفة ، لأنها تعمل باستمرار ، وعلى نطاق واسع ، ولا تُقاوَم كما تُقاوَم الرِدَّة الصريحة ، التى تُحدث الضجيج ، وتلفت الأنظار ، وتثير الجماهير .

إنّ النفاق أشد خطراً من الكفر الصريح . ونفاق عبد الله ابن أُبَىّ ومن تبعه من منافقى المدينة ، أخطر على الإسلام من كفر أبى جهل ومَن تبعه من مشركى مكة .

ولهذا ذم القرآن فى أوائل سورة البقرة : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [1] أى المصرِّحين بالكفر فى آيتين اثنتين فقط ، وذكر المنافقين فى ثلاث عشرة آية .

إنها الرِدَّة التى تصابحنا وتماسينا ، وتراوحنا وتغادينا ، ولا تجد مَن يقاومها . إنها - كما قال شيخ الإسلام الندوى - رِدَّة ولا أبا بكر لها !

إنّ الفريضة المؤكدة هنا ، هى : محاربتهم بمثل أسلحتهم ،

---

(١) البقرة : ٦

الفكر بالفكر ، حتى تكشف أوراقهم ، وتسقط أقنعتهم ، وتزال شبهاتهم بحجج أهل الحق .

صحيح أنهم مُمَكَّنون من أوسع المنابر الإعلامية : المقروءة والمسموعة والمرئية ، ولكن قوة الحق الذى معنا ، ورصيد الإيمان فى قلوب شعوبنا ، وتأييد الله تعالى لنا ، كلها كفيلة أن تهدم باطلهم على رؤوسهم : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ (١) ، ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ ﴾ (٢) ... وصدق الله العظيم .

* * *

---

(١) الأنبياء : ١٨ (٢) الرعد : ١٧

الفهرس

تم بحمد الله تعالى

* * *

المؤلف فى سطور

ولد ونشأ فى مصر ، وحفظ القرآن الكريم وجوّده وهو دون العاشرة ، وأتم تعليمه فى الأزهر الشريف .

حصل على الشهادة العالية من كلية أصول الدين عام ١٩٥٣م ، وعلى إجازة التدريس عام ١٩٥٤م ، وكان ترتيبه الأول فى كليتيهما ، كما حصل على الدكتوراة بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٣ م .

عمل بعد تخرجه فى مراقبة الشؤون الدينية بالأوقاف ، وإدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر، ثم أعير إلى قطر مديراً لمعهدها الدينى ، فرئيساً مؤسساً لقسم الدراسات الإسلامية بكليتى التربية ، فعميداً مؤسساً لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، ومديراً لمركز بحوث السُّنَّة والسيرة الذى كُلِّف بتأسيسه ولا زال يديره .

اشتغل بالدعوة منذ فجر شبابه ، وشارك فى الحركة الإسلامية ، وأوذى فى سبيلها بالاعتقال عدة مرات ، فى

عهد الملكية وعهد الثورة .. وتنوع عطاؤه بتنوع مواهبه ، فهو خطيب مؤثر ، يقنع العقل ويهز القلب .. وكاتب أصيل لا يكرر نفسه ولا يقلد غيره .. وفقيه تميَّز بالرسوخ والاعتدال ، فشرّقت فتاواه وغرّبت .. وعالم متمكن فى شتى العلوم الإسلامية ، جمع بين علوم أهل النظر ، وعلوم أهل الأثر .. وشاعر حفظ شعره الشباب الإسلامى وتغنَّى به فى المشرق والمغرب .

جاوزت مؤلفاته الخمسين ، وقد لقيت قبولاً عاماً فى العالم الإسلامى ، وطبع بعضها عشرات المرات ، وتُرجم عدد كبير منها إلى اللغات الإسلامية ، واللغات العالمية ، أما مقالاته ومحاضراته وخطبه ودروسه فيصعب حصرها .

وصفه الذين كتبوا عنه بأنه من المفكرين الإسلاميين القلائل ، الذين يجمعون بين مُحْكمات الشرع ومقتضيات العصر ، وبأن كتاباته تميزت بما فيها من دقة الفقيه ، وإشراقة الأديب ، ونظرة المجدد ، وحرارة الداعية .

عضو فى عدة مجامع ومؤسسات علمية ودعوية وعربية وإسلامية وعالمية ، منها : المجمع الفقهى لرابطة العالم

الإسلامية بمكة ، والمجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن ، ومركز الدراسات الإسلامية بأكسفورد، ومجلس أمناء الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد ، ومنظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم . . . ورئيس لهيئة الرقابة الشرعية فى عدد من المصارف الإسلامية .

زار عدداً كبيراً من الأقطار الإسلامية فى آسيا وأفريقيا ، والتجمعات والأقليات الإسلامية فى سائر القارات ، ودعى إلى المحاضرة فى عدد من الجامعات الإسلامية والعالمية ، كما شارك فى عدد جم من المؤتمرات والندوات العلمية داخل العالم الإسلامى وخارجه .

من أبرز دعاة (الوسطية الإسلامية) التى تجمع بين السَلَفية والتجديد . وتمزج بين الفكر والحركة ، وتركز على فقه السنن ، وفقه المقاصد ، وفقه الأولويات ، وتوازن بين ثوابت الإسلام ومتغيرات العصر ، وتتمسك بكل قديم نافع ، كما ترحب بكل جديد صالح تستلهم الماضى ، وتعايش الحاضر ، وتستشرف المستقبل .

رقم الإيداع ٢٩٦٦ / ١٩٩٦
الترقيم الدولي I.S.B.N
977-225-093-4

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر

سلسلة ترشيد الصحوة
للدكتور يوسف القرضاوى
تصدرها مكتبة وهبة تباعاً

● صدر منها

١ – الدين فى عصر العلم

٢ – الإسلام والفن

٣ – النقاب للمرأة .. بين القول ببدعيته .. والقول بوجوبه

٤ – مركز المرأة فى الحياة الإسلامية

٥ – فتاوى المرأة المسلمة

٦ – جريمة الردة .. وعقوبة المرتد .. فى ضوء القرآن والسنة

* * *